هذا جناه أبى على

تقابلت معه فى الصيف الماضى حين كنت أقضى العطلة الصيفيه فى الكويت ، ولم أصدق نفسى أول الأمر أننى أمام صديقى « ابراهيم » رفيق الطفولة السعيدة ، لو لم يبادرنى بقوله «أنسيت صديقك ابراهيم ؟» قلت الحق أننى ما كنت أتصور أن . . . . قال بمرارة لا تخلو من سخرية ، أن أصبح على هذه الحالة السيئة اليس كذلك ؟ قلت — وأنا فى أشد حالات الاحراج — الحق أننى أتحلى بذاكرة لا بأس بها فى عالم النسيان ثم شددت على يديه مودعا لأتخلص من هذا الموقف المؤلم .

هذا أيها القارىء العزيز ضحية من ضحايا مجتمعنا الجاهل ضحية أب تمسك بثوب التقاليد الرجعية فأحرق شمعة كانت ستضىء نورا لهذا البلد البائس لولم توجه توجيها سيئا .

والآن عد معى أيها القارىء العزيز إلى الوراء خمسة عشر عاما لأقص عليك قصة صديقى هذا . كان ذلك فى سنة ١٩٣٥ وكنت وصديقى « ابراهيم بطل هذه المأساة نتلقى الكتابة وقراءة القرآن فى إحدى الكتاتيب المنتشرة هنا وهناك فى حينا الواسع ، وكنت وصاحبى نجلس متجاورين حين نقبل إلى الكتاب صباحا فنتبادل الحلوى والملبس الذى نجلبه معنا كل صباح لنقطع به ذلك الوقت الطويل الذى نقضيه فى الكتاب والذى قل أن يتخلله راحة أو فسحة .

ومضت بنا الحياة على هذا المنوال سهلة هينة ، نقبل إلى الكتاب إذا أقبل الصباح ونرجع منه إلى البيت قبل غروب الشمس بسويعات قليلة ، ولم يكن يكدر صفونا إلا تلك الحملات التأديبية المفاجئة التى يشنها علينا (المعلم) مستعملا عصاه الطويلة الثقيلة حين يلحظ علينا تكاسلا فى حفظ الدرس أو تهاونا فى دفع (الخميسية) أو (النافلة) .

وفى صباح أحد الأيام حضرت إلى الكتاب فلم أجد صاحبى ابراهيم ، فأدهشنى ذلك لما تعودت فى صديقى من حرص على التبكير فى الحضور وإعراض عن التأخير ، ومضت ساعات كنت خلالها أفكر فيما قد يصيب صاحبى من عقاب على هذا التأخير خصوصا وقد لاحظت أو خيل إلى أن وجه (المعلم) — سامحه الله وأكرم مثواه — تعلوه سحابة من الغضب والتجهم جعلتنى أرتعد خوفا بالرغم من استمرارى فى قراءة القرآن وتعمدى رفع صوتى فى ترتيل آياته . وقبل انصرافنا من الكتاب بزمن قصير حضر ابراهيم وهو يتيه بتلك الملابس الجديدة التى كان يرتديها وتعلو وجهه ابتسامة مشرقه لم تتعود رؤيتها على وجوه المتأخرين عن الحضور إلى الكتاب ، وأخذ صاحبنا طريقه إلى منصة (المعلم) غير آبه بتلك النظرات القاسية التى سلطها عليه ، وغير مبال بتلك العصى الغليظة التى أخذ يهزها فى وجهه هزا . وساد حلقة الدرس هدوء كالذى يسبق العاصفة العاصفة التى كنا ننتظر أن يثيرها أستاذنا الفاضل ذو الحول والطول على هذا التلميذ المهمل ، وحبسنا أنفاسنا حين تكلم (المعلم) بصوته الجهورى متسائلا عن سبب التأخير ، ورد عليه صاحبنا فى غير مبالاة أو تسرع بأن أباه قد قرر إخراجه من الكتاب ليسافر معه إلى (الغوص) ثم ألقى إليه ببعض دريهمات وانصرف . ! !

وكانت المفاجأة شديدة الوقع على فقده سرتنى وأحزنتنى سرتنى حين تبين لى أن صاحبى قد شب عن الطوق وذهب مذهب الرجال ، وأحزنتنى حين فكرت فى الفراغ الكبير الذى سيتركه خروج ابراهيم زميلى وصديقى ، ولا أكذبك القول أيها القارىء العزيز أننى فى ذلك الوقت تمنيت لو استطعت أن أقنع أبى ليحذوا حذو أبيه وفعلا ما أن انصرفنا من الكتاب حتى ذهبت أبحث عن الشيخ الوقور الذى ما إن أفضيت له ما بنفسى حتى قال — ولا تزال كلماته ترن فى أذنى — يابنى لكل زمان دولة ورجال ، ونحن لا نعلم ما يخبئه لنا القدر فان كان (الغوص) أو (السفر) الآن فى ازدهار فقد يقلب الدهر ظهر المجن وتنعكس الآية .

ثم ربت على كتفى وقال (لقد قررت إلحاقك بمدارس المعارف فما رأيك فى ترك الكتاب ؟ والحق أن فكرة ترك الكتاب هذه جعلتنى أنسى ما جئت لأجله ، فانصرفت مغتبطا.

(البقية على صفحة ١١)